في مؤتمر الأدباء

سنلتقي ... سنلتقي !

بقلم فؤاد الشايب

فرصة سعيدة أتاحها لي الاخوة رؤساء الوفود العربية في هذا المؤتمر ، اذ قرروا في جلسة لهم عقدت برياسة الاخ الدكتور الدوري رئيس المؤتمر ان يتاح للمندوب السوري الكلام في جلسة الاختتام بعد أن فاته شرف الاشتراك مع زملائه في حفلة الافتتاح .

وانها بالحق لرغبة كريمة وأمر رفيع أصدع له وأستجيب استجابة النفس تتحكم بالامنية قبل ان تراها ، وتتمنى على الغيب ، فاذا بالواقع أكرم من الغيب . ولكم كان صوب السحاب أسبق من دعاء التراب وأسرع خاطرا ... -

بالحق لم نتخلف ، نحن اعضاء الوفد السوري عن اليوم الموعود الا بما قد فرضت علينا الصدف المحكمة التلاحم والترابط ان نتخلف . لقد حاولنا قبل الموعد بأيام ان نسلك الى بغداد طريق الجو ، فلم يتيسر لنا ذلك ، وكان لا بد ان نركب المركب الخشن حقا ، وهو السيارة التقليدية عابرة الصحراء التي كانت منذ اربعين عاما مركب السرعة والعجيبة ، يصل المسافر به من بغداد الى دمشق ، بأربع وعشرين ساعة ، فيتجمع لوصوله الناس ، يتأملون في عظمة هيكله وجليل أمره ...

وقد شاءت ظروف ، كأنها مدبرة ، وليست مدبرة الا في اوهامنا المتعبة ، أن نجتاز الصحراء بين البلدين الاخوين بتسع وعشرين ساعة، لا بأربع وعشرين ... وكان علينا أن نغرق طويلا في لجج الافكار الرديئة والحسابات السرية والتأملات الغارقة في أعماق السأم المضني ...

ومغزاه : على طريقة كليلة ودمنة ، من يركب الشراع في عصر النفاث ، لا يحق له ان يشكو الرياح ، ويحملها تبعة غرق السفن . سقى الله أياما مضت ، عندما كان نصف بيت من الشعر ـ تجري الرياح بما لا تشتهي السفن ـ عزاء للمنكوب ، وحجة لراكب المجهول ، يتعلل به ويبرىء ذمته وساحته . وأما اليوم وقد تبدلت لغة العصر ، فلا أقل من ان تتبدل معها لغة الشعر . ولعل ما يشفع لنا امامكم ، ايها الاخوة ، ان نعترف بأننا اخترنا الشراع الذي تتحكم به الرياح ، وبئست الرياح مركبا ...

***

منذ اكثر من اثني عشر عاما ، اي منذ عقدنا مؤتمر الادباء العرب لاول مرة في لبنان ونحن نقول : سيدعونا العراق ، ومتى يدعونا العراق ؟ ولقد كنا نفتقده داعيا لا مدعوا ، ومتقدما في موكب الفكر والنضال ، لا متباطئا ، ولا متخلفا . وكانت تتعاور العراق أيام الشدة والهول ، بلا رحمة ولاهوادة ، وبالاخص منذ ان فرض الاستعمار عليه ، بالاثارة والاهانة ، معركة عام الف وتسعمئة وواحد واربعين ، فخاضها بكل كرامة وكبرياء ، ولكن بلا تكافؤ ولا عدة ، وانتهزها العدو فرصة لسحق المد العربي العظيم الذي كانت بشائره في بغداد تهز احلام الجهاد العربي وأمنيات البطولة والفداء . وكان لا بد ان يطول بالمد زمن التراجع والانحسار ، وتتجمع له من جديد روافد الالم والحقد ومر الهوان ، حتى تفجر كما يجب ان يحدث التفجر في ثورة الرابع عشر من تموز ، فعاد الى موقعه الطبيعي من حياة العراق ، مزيلا اللعنة ، وماسحا الاهانة ، ومطهرا التراب العربي من رجس مدنسيه . فكانت الثورة التي فتحت للعرب ابواب العراق ، وللعراق ابواب النضال العربي المشترك ، ليقف حيث يجب ان يقف في الصف الاول من قيادة العمل المنظم الذي يضع في جبين الهدف الاكبر وحدة الامة وبناء مجتمعها الجديد .

واليوم ، ودون عناء كبير في التحديق والتأمل وترصد ما جرى بعد يوم الثورة ، عام ألف وستمئة وثمانية وخمسين ، نستطيع القول اننا نعيش في حمى الثورة ، وفي جوها الطبيعي المحمل بالوعود ، ونلمس في كل ما نرى ونسمع توتر عنفها وعنفوانها ، ونشم في كل عود احتراق بخورها واشتعال زيتها ، وتوسع دوائرها في حياة المجتمع العراقي ، ثقافيا واجتماعيا .

من اجل هذا ، وقبل ان يرحب بنا العراق فوق ارضه ، ابناء امة واحدة ولغة واحدة ، يتجمعون في هذا المؤتمر ، وتنعقد حولهم آمال واحلام ، نسبقه الى الترحيب به ، في الصف الاول من القيادة النضالية العربية ، عاملا بيده وقلبه وعقله ولسانه ، وبجميع طاقاته الكبرى ، من اجل عزة الامة وحريتها ووحدتها .

***

أيها الاخوة . بما انني عاصرت مولد الفكرة التي انعقد حولها مؤتمر الادباء العرب الاول في لبنان لاول مرة عام ١٩٥٤ ، وكنت بين الافراد الذين أسهموا في تنفيذها ، وبما انني اشتركت فعليا في كل دورة من دورات المؤتمر ، في دمشق والقاهرة والكويت ، ثم في بغداد ، أستطيع أن أؤكد لكم ان مؤتمر بغداد كان اكثر المؤتمرات السابقة نجاحا ، واوسعها جولة ، او قد تساوى من حيث القمة الفكرية بمؤتمر القاهره عام ١٩٥٧ عندما كان الوطن العربي يمور بالاحداث الجسام وكان المؤتمر بما طرحه من قضايا فكرية قومية على مستوى الحدث السياسي والانفعالات النفسية السائدة . بل ان ما سيسجل لمؤتمر الادباء في بغداد منفردا ، هو ظهور هذا التحول القاطع في التفكير القومي ، والثقافة العامة ، من حيز المسائل الذهنية والجدلية الجانبية، الى مسائل اجتماعية واقعية تلازم القضية القومية وتمشي بجانبها ، جزءا لا يتجزأ من حقيقتها ، مسيرا ومصيرا . وقد تبدت روح العلم خاصة في دراسة التاريخ القومي والتراث العربي بما يكشف عن جذور الشخصية القومية التي يجب ان تعتمد نموذجا مثاليا لسمات المستقبل في تكوين المجتمع العربي والانسان العربي .

وان يكن الحرص على دراسة الشخصية القومية في التاريخ والتراث دعوة تتناغم مع حرص المثقفين على تقييم التراث في ضوء العلم واليقين ، لا التسليم الساذج ولا التخمين ، فان هذا الحرص يعززه حرص اخر على فتح النوافذ واسعة لتيارات العصر ، دون خوف او وجل ، ليتم تكوين الشخصية القومية ، تكوينا رياضيا حرا ، سليما، تتوافر له جميع عناصر الغذاء والنماء .

ومما يسجل ايضا لمؤتمر الادباء في بغداد ، تفردا ، التقاء اجيال ثلاثة ، من الشيوخ والمخضرمين والشباب ، على المائدة الواحدة ، وجها لوجه ، دون ان يبدو في جو المائدة ما يشار اليه عادة بصراع الاجيال وتنابذها . لقد رأينا الشيوخ في حذر شديد من تهمة التخلف ، والشباب

في حذر شديد من تهمة التهور ، حتى أن بعض الظواهر بـــدت لنـــا وكأن البعض قد احتل مكان الاخر في الصف ، وأقام حيث يفـــرض ألا يقيم ، فدل ذلك بأقل الدلالات على ان الحياة طفقت توزع نفسهـا في جوانب المجتمع العربي وراء الافكار لا وراء الاشخاص والاجيـــال والاوهام ، بحيث ينتفي قيام نزاع مألـــوف بين القديم والجديـد ، والشيوخ والشباب ، بالشكل الذي كان سائدا في الاجواء البعيـــدة عن التفاعلات الثقافية .

وان يكن الباحث المتأمل لا ينفي وجود الصراع والتنابذ ، الـى حد ما ، فلنا بعد ان شهدنا مؤتمر بغداد ان نستبشر بأن المشادة عـــلى أضعفها بين المثقفين الذين طفقوا يشعرون بتبعاتهم وبمزايا التـــوازن العقلي والعاطفي الذي تعبر عنه في تاريخنا كلمات العدل والاعتـــدال والقسط والقسطاس والوسط وسواها مما يضعه العقل العربي فـي مقام القيم الخالدة .

فاذا قام الصراع بين افكار ، لا بين اجيال واشخاص ، وكان العلم في مشكاته ، حيث يجب ان يكون ، فقد أمنا العثار في ضوء النهـار ، وأنقذنا أنفسنا من انقلاب المشادة الى خناقة ، والفكرة الى تصـــور غيبي وعصبية ضالة . اذ لا خوف من الافكار ان تتنازع وتؤكد الشرار ، بل الخوف من ان تحصر فـــي خيانات الاحتكار او تتولاها ادارات الاوقاف الخاصة .

أيها الاخوة ، يقولون التوصيات والحكومات ، وأقول للقائليـــن دعونا من التوصيات والحكومات ، فمن شاء فلينفذ ، ومن شاء فليغلـق الباب بوجه التوصيات واصحابها . ان الافكار لا تحجبها الاســوار ، والعصر يفرض نفسه ، فمن أدبر أو شاخ فانه مسحوق تحت عجـــلات الـزمن . فلنترك التوصيات لما تفرضه طبيعة هذه التوصيات ، ولنقل ان خير ما نحصد من هذه المؤتمرات هو اللقاء . اللقاء بما يحمله مـن تعارف وتآلف ومواجهة مع الحقيقة العربية النيرة الخيرة ، الكاملة الشاملة ، الصافية الجوهر ، المزورة بالابعـــاد ، المضيعة بالاوهـــام ، المبرقعة بالانحجاب الذي يؤلف تقليد الذات المنفصلة ، والانعزال الذي يزور ثقافة الخلية المستقلة . وما ان يتنازل المواطن العربي عن بعض ما يعلم عن اخيه المواطن العربي الاخر ، ليأخذ باللقاء علما جـــديدا بأحواله حتى يعلم اول ما يعلم انه كان مغرورا ، مضيعا ، جاهـــلا ، وكم مرة كنا نبدأ اللقاء في مثل هذه المؤتمرات اشباحا تقارب اشباحا، وأقنعة تواجه أقنعة ، وقفازا يصافح قفازا ... كل منا يزعم انه العالم، الفاهم ، الواثق ، الموثوق ، وان القرية التي أتى منها هي أم القـرى ، والعلم الذي جاء به عن الحياة والناس والقريب والبعيد اول العـلم وآخره ، ثم لا نلبث ان تسقط تلك الاصداف التراكية والاوهام الداكنة والمعارف المزورة ، بعد لقاء اول وثان وثالث ، واذا بالحياة لا تستطيـع المضي في انظار ذاتها ، واذ بالدم ليس ماء ولا سما ، واذ بالدوحـــة العريقة ليست جذوعا يابسة وحطبا ميتا ... واذ بالفضاء الذي يحيط بهذه الاكوان ليس غبارا ودخانا ، بل صفاء وجاذبية وطبيعة كونيـــة واحدة ، وليست الاجرام فيه كواكب مستقلة . وعوالم تحرسهـــا نواميسها ، بل مجموعة واحدة ، تسبح في فلك واحد ، تدور بنـاموس واحد ، فطرت حقا لتعيش معا ، ولتموت معا ، اذا كان لحياتها حـد ، ولازليتها نهاية .

وانا شخصيا ، شخصيا جدا ، قد أحرزت نصرا كبيرا اريـد ان اسجله لنفسي وأتنعم به وحدي ، اذا كان لا يلذ احدا غيري . لقـد استطعت ان اقنع ، بعد يوم وليلة ، خادم الفندق المروع من الاطـلاع على هويتي وجواز سفري ، اني لست فارسا مدججا بأسلحة رهيبـة ، هبط من المريخ ، او لست أحد اقنعة هتشكوك التي يشاهدها فـــي التلفزيون ، وقد ارتكب الجريمة ، ويثب لارتكاب جريمة ... لقـــد استطعت ان اقنعه بأنني لست خفاشا ، يمتص الدماء في الليل ، عندما سمحت له ان يتأمل طبيعتي من ثقب الباب ليتأكد انني لا احمل تحت ذراعي جناحي خفاش ولا سلاح تذويب النائم في فراشه ، او تـــذويب النخاع في جمجمته ... لقد اخبرته ان يدخل علي بفنجان من القهوة، وكان قد عطل الجرس ليمتنع عن ندائي ورؤيتي . لقد جذبته الى اجراء خطاب بيني وبينه ثم رأيته يتودد لي ، ثم رأيته يبتسم ، ثم رأيتـــه يغازلني ، ثم رأيته ينقض علي شوقا ، كأنني أعرف أهله من ايام امرىء القيس ، ثم طفق يبكي لانني سأغادره بعـــد أيام ... فكففت دمعه ، وبكيت معه ، وقلت له سأعود ... قلت له سنلتقي ، سنلتقي ، لا ادري اين ... فكل مكان فوق أرض العروبة هو لي ولك يا اخي ، وهو مكان لقاء وحب ووفاء.. سنلتقي كثيرا ، سنلتقي طويلا ... والى اللقاء .

فؤاد الشايب

صدر عن :

دائرة الدراسات السياسية والادارة العامـة

الجامعة الاميركية في بيروت

كتـــاب

الوثائق العربية ١٩٦٣

اضخم مجموعة للنصوص الكاملة للبيانات والتصاريح والبرامج السياسية للدول والاحزاب والشخصيات فـي الشرق العربي .

٢٩٠ وثيقة في ٨٥٠ ص (الصفحة عمودان)

الثمن ٢١ ل٠ ل٠ او ٧ دولارات اميركية

اطلبوا هذا المرجع الذي لا غنى عنه من :

مكتب التجهيز والبيـع ـ الجامعة الاميركية فـي بيروت

او دائرة الدراسات السياسية ـ الجامعة الاميركية فـي بيروت